وقفة مع سيبويه في هدي "الكتاب"

الأستاذ أحمد زغوان

المركز الجامعي مولاي الطاهر ـ سعيدة

ما تزال النشأة الأولى لتاريخ النحو وتطوره تلفها ستائر الغموض لافتقادنا للمادة النصية الموثقة أو لانعدامها والتي يمكن الاتكاء عليها لمعرفة ما قد يكون حصل في بدايات التشكل في المراحل الأولى لميلاد النحو.

لقد أحدث كتاب سيبويه (ت 180 هـ) في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بمثل ذلك الظهور الطفري في الساحة النحوية المفاجأة للدارسين ولا يزال.

إنها قفزة نوعية في عالم المعرفة على غاية من التمام والكمال وعلى قدر كبير من الإحاطة والتوسع في الدرس والمناقشة والبحث والاستقراء مما يجعل الباحثين لا يشكون بالمرة في كونه غير مسبوق بفراغ والأكيد أنه قد توافرت لمؤلفه مادة علمية ومراكمة معرفية سابقة عليه يكون قوام الدرس فيها على المشافهة والنقول والمرويات.. خاصة مع قلة وسائل الكتابة وانحصار الجهد فيها ابتداء على تأليف العلوم الدينية وما يتصل بها حفظا للقرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

إن تأثر المفاهيم والاصطلاحات التاريخية التي يكون لها حضور طللي يشبه المعاني التي يشي بها الأثر الطللي للواقف عليه تعد من أنفس ما يعين الباحث في اقتفاء سيرة العمل الفني لكن انعدام النص الأثري السابق لمدونة سيبويه يعيق القراءة الراصدة ويحول دون ذلك، وليس بين أيدينا غير "الكتاب" لمن يريد أن يقف عليه ويسائله عله يجيب بإشاراته وتلميحاته عن بعض ما كان يجري طيلة القرن والنصف من الزمان.

يعتبر الكتاب أقرب إلى الوثيقة التاريخية بأكثر من معنى كونه أثرا من أثار مرحلة ضبط المادة اللغوية في بعده الوظيفي، أو ما يمكن تسميته بمرحلة "ترسيم العربية" وهو أحد إفرازاتها إلا أنها مرحلة في ضمير الغيب لا نقف حيالها على ذلك النمو المتسلسل المتصل الحلقات.

ونحن ارتأينا وقفة مع الكتاب للأهمية التي حظي بها فهو البذرة الأولى التي تفرعت عنها دوحة النحو التي أفاءت بظلالها على أهل العربية، وغدا تاجها وقرآن نحوها فتناوله معجبوه منذ ظهر بالحفظ والشرح والتلمذة بين يديه.

ثم "إن عظمة هذا الصنيع متمثلة في ذلك كله قد ألقت في روع اللغويين أن سيبويه وصل بعمله إلى قمة المجد العلمي وليس بعد صنيعه زيادة لمتزيد ولا منفذ إلى الكمال، وترجموا هذا الإحساس بعبارات تنبئ عن إجلالهم لهذا العمل ويأسهم من مجاراته"[1] مناغمة مع قاعدة "ليس بالإمكان أبدع مما كان".

فالمبرد يعرب عن هذا الإحساس قائلا "م يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه، وذلك أنّ الكتب المصنفة في العلوم مضطرة إلى غيرها وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره... كون الكتاب يتعلم منه النظر والتفتيش"[2].

وفي ذات المعنى يقول أبو عثمان المازني (ت 245 هـ) "من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو كتاب سيبويه فليستح، وكان المبرد إذا أراد إنسان أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له : هل ركبت البحر تعظيما له واستصعابا لما فيه"[3].

ويذكرون عن الجرمي (ت 225 هـ) قوله " أنّه مذ ثلاثين سنة يفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه"[4] .

هذه شهادات أعلام من صيارفة اللغة بالتقدمة للكتاب تبيانا لجلالة قدره، ورفعة منـــزلته، وقد ترجم البعض هذه الاحتفائية إلى ممارسة عملية بالشروع في حفظه باعتباره قرآن العربية أو حفظ بعضه فأحصوا لنا ممن "حفظه أو حفظ جزءا منه ابن الوزان (ت 346 هـ) وخلف بن يوسف

الشنتريني (ت 532 هـ) والأسنائي (ت 505 هـ)، وابن مطرف الإشبيلي الدزير (ت 532 هـ)، وغيرهم، وممن قرأه أو أتقنه الجرمي (225 هـ)، والزجاج (ت 311 هـ)، والبطليوسي (ت 540 هـ)، وابن البناء (ت 721 هـ)، وغيرهم وممن شرحه إبراهيم الزيادي (ت 249 هـ)، والزجاج (ت 311 هـ) ، والمعربي (ت 449 هـ)، وابن النحاس (ت 338 هـ)، وابن ولاد (ت 331 هـ)، وأبو سعيد السيرافي (ت 368 هـ)، الجرمي (225 هـ)، وابن درستويه (347 هـ)، والرماني (384 هـ) وغيرهم كثير"[5].

ويبدو أن جملة هذه المواقف موجهة بعوامل موضوعية فهي إلى حد كبير انعكاس لواقع الدرس العربي بعامة كما أعرب عنها صاحب الكتاب في مدونته وفي ضوئها يمكن تسجيل النقاط التالية كما يتيح لنا ذلك مساحة لتأثر طريقة التأليف في النحو عهدئذ :

1. " كتاب سيبويه كان في مادته نتاج ذلك العصر أكثر مما كان نتاج سيبويه ولكن فضل سيبويه يتضح في بسط المادة والتبويب"[6] في الحدود المتاحة التي تسمح بها ثقافة ذلك العصر، ويذهب الدارسون إلى أن الرجل اعتمد في إعداد تلك المدونة الضخمة على مراجع علمية طلائعية يذكر العلماء منهم ما يقارب الاثنين والأربعين إنسانا يتصدر قائمتهم عبقري البصرة "الخليل بن أحمد وقالوا إن "الكتاب لم يكن من الممكن تأليفه لو لم يضع السلف الكثير من المعطيات النحوية ويبلوروها، ويقربوها إلى الأذهان"[7] ويخرجوها من طور المبادئ والنظرية، إلى طور التجريب والممارسة الميدانية.

2. شدة تأثير أستاذية الخليل وحضور سلطته بشكل لافت في عمل سيبويه حتى قيل إن "كل ما يحكيه في كتابه فعن الخليل، وحين يقول سيبويه في كتابه فسألته فهو يعني الخليل"*[8] الذي يعتبره ابن خلدون المهندس

الحقيقي للصناعة النحوية وفاتح أبوابها، والأب العلمي لسيبويه ويفترض أن عمل الأخير انحصر على الاستكثار من الأدلة والشواهد تسويغا لمذهب الإمام الذي يروي عنه في الكتاب في حدود 522 مرة، وهو قدر لم يروِ مثله ولا قريبًا منه لأحد غير الخليل الذي كلما ذكر اسمه أزجى له سحائب الرحمات ومن ذلك قوله "وسألته رحمه الله .. وهذا قول الخليل رحمه الله، وسألت الخليل رحمه الله ، وسألناه رحمه الله .."[9].

وهذا النوع من التأثر بشخص الخليل وشدة الإعجاب عنه بالإكثار من بسط أقواله ومذاهبه في علم النحو يعزز الفرضية القائلة بأن الخليل بن أحمد هو أول من بحث مسائل النحو بصنيعه وفتق معانيه وطرائق الحجاج فيه كما يقولون فبلغ حدًا لم يتح لغيره في وضع آليات القياس والتعليل لقضايا اللغة ومسائلها في شقها النحوي على الصورة التي يصفها سيبويه (ت 180 هـ) في كتابه بعد حاز درجة الأستاذية على يديه.

وهذا لا يعني أن الرجل يسير ساكتا وراء الخليل معتقدا غير منتقد بل يناقش ويفاتش ويوجه في غير ما موضع وذلك كأن يعقب على قول أستاذه "وتفسير الخليل رحمه الله ذلك الأول بعيد إنما يجوز في شعر أو في اضطرار"[10].

قال أبو إسحاق الزجاج (ت 311 هـ) "إذا قال سيبويه بعد قول الخليل، وقال غيره فإنما يعني نفسه لأنه أجل الخليل عن أن يذكر نفسه معه"[11].

3. ربما تركز جهد سيبويه على جمع ما تفرق من مواد معرفية، مصنفا مرة ومرتبا لأبوابها أخرى ومفيدا مرات من إسهامات العلماء الآخرين الذين كان يحتطب في حبالهم، وطالما جلس إلى موائدهم يطلب العلم الذي لا يلحن فيه كما في المرويات التي تذكر عنه أنه "قدم البصرة

ابن عمر* (ت 149 هـــ) وأبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـــ)، لأنّها الطبقة التي قامت الدلائل على أنّ رجالها كانوا يتناولون بالدرس مسائل نحويــة، وإن كـــان نحوهم لا ينتظم أبواب النحو ومسائله"[16]، بقدر ما انــتظم "تقعيــد الظــواهر اللغوية.. وتلمس أصول تنبني عليها هذه القواعد.. وتسجيل ما أدركوه من ظواهر لغوية"[17]، وينضاف "إلى الثلاثة المذكورين يونس بن حبيب، والأخفش الأكــبر وهم من ينقل عنهم سيبويه، وأحيانا لا يصرح باسم الشيخ الذي ينقــل عنــه.. بألفاظ مختلفة منها: وزعموا، وهذا كله سمع من العرب، وسمعنا ممن يرويــه عــن العرب"[18].

وبسبيل هذا ما يرويه سيبويه مثلا عن الأخفش الأكبر أبو الخطاب[*] نحــو 47 مرة، وعن عيسى بن عمر الثقفي البصري نحو 22 مرة، وعن يونس بن حبيب نحو 200 رواية[*]. وإذا قال " قال الكوفي فهو يعني الرؤاسي "[*][19].

كما يروي عن الكوفيين "وهم عاصم وحمزة والكسائي"[20].

إن هؤلاء هم جيل الرواد الذين مهدوا لسيبويه الطريق، ليجد نفسه قافيــا أثرهم العلمي ويعمل فيه حسه النقدي فيرتب أبوابه، ويستنطق مادته، ويشق لنفسه طريق الخلود عبر ذلك الركام المعرفي المؤتلف والمختلف في نفس الوقت.

فلا غرابة إذن أن نجد الكتاب يحتاز كل تلك الحفاوة والحظوة عند الدارسين قلّما تتأتى لغيره ويسمونه "الكتاب" على ما في هذه الوصف من دلالة قد يكــون منها التيامن بالقرآن، مثلما سمى الخليل بحور الشعر وعلومها بالعروض تيمنا بالكعبة الشريفة، وكذلك كانت تسمية القدماء له آتية من هذا الطريق "الكتاب" هكــذا بدون عنوان.

بن عمر* (ت 149 هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ)، لأنّها الطبقة التي قامت الدلائل على أنّ رجالها كانوا يتناولون بالدرس مسائل نحوية، وإن كان نحوهم لا ينتظم أبواب النحو ومسائله"[16]، بقدر ما انتظم "تقعيد الظواهر اللغوية.. وتلمس أصول تنبني عليها هذه القواعد.. وتسجيل ما أدركوه من ظواهر لغوية"[17]، وينضاف "إلى الثلاثة المذكورين يونس بن حبيب، والأخفش الأكبر وهم من ينقل عنهم سيبويه، وأحيانا لا يصرح باسم الشيخ الذي ينقل عنه.. بألفاظ مختلفة منها: وزعموا، وهذا كله سمع من العرب، وسمعنا ممن يرويه عن العرب"[18].

وبسبيل هذا ما يرويه سيبويه مثلا عن الأخفش الأكبر أبو الخطاب(*) نحو 47 مرة، وعن عيسى بن عمر الثقفي البصري نحو 22 مرة، وعن يونس بن حبيب نحو 200 رواية(*). وإذا قال " قال الكوفي فهو يعني الرؤاسي "(*)[19].

كما يروي عن الكوفيين "وهم عاصم وحمزة والكسائي"[20].

إن هؤلاء هم جيل الرواد الذين مهدوا لسيبويه الطريق، ليجد نفسه قافيا أثرهم العلمي ويعمل فيه حسه النقدي فيرتب أبوابه، ويستنطق مادته، ويشق لنفسه طريق الخلود عبر ذلك الركام المعرفي المؤتلف والمختلف في نفس الوقت.

فلا غرابة إذن أن نجد الكتاب يحتاز كل تلك الحفاوة والحظوة عند الدارسين قلّما تتأتى لغيره ويسمونه "الكتاب" على ما في هذه الوصف من دلالة قد يكون منها التيامن بالقرآن، مثلما سمى الخليل بحور الشعر وعلومها بالعروض تيمنا بالكعبة الشريفة، وكذلك كانت تسمية القدماء له آتية من هذا الطريق "الكتاب" هكذا بدون عنوان.

ويعد أنموذجا للمزاوجة بين الأحكام النظرية وإنزالها إلى ميدان التطبيقية انطلاقا من الموروث الخبراتي للطلائع الأولى، وما وجد تحت يديه من الكم اللغوي كاشفا بذلك عن أشكال من التصور الفكري لكثير من القضايا، ومحددا لمنسوب العبقرية العلمية ومدى نضجها مستعينا بمهاراته الذهنية، وقدراته المعرفية.

ووجد سيبويه نفسه "يتجه بالدرس النحوي العربي ناحية المنطق واللغة، وكان عمله جمعا وتنظيما للمناقشات النحوية اللغوية والبلاغية المنطقية التي انشغل بها جيله والجيل السابق له"[21] فاستحقت مدونته بما هي عليه أن تكون فاتحة عهد بالتدوين في الدراسات النحوية العربية في خطوة تبدو استباقية لعهدها إذا وضعناها موضع المقارنة مع ما سبقها من محاولات، وطبيعة المادة اللغوية التي تعتمد أول ما تعتمد على المشافهة وما أصعب أن تقنن للغة غير مكتوبة.

5. التأثر بمفردات الجدل وآلياته التي ينهض بها من منطق ومحاججة "فالكتاب مملوء بالقياس والعلل وقد استعمله في مهارة وكثرة، فهو يولد من الشيء أشياء، ويعلل ويقيس، ويذكرنا عمله بتفريع الحنفية، وتعليلها وقياسها، ففي التصغير مثلا يستقصي ما يصغر وكيف يصغر، ويفرض الفروض فيتساءل : إذا سميت رجلا بعين أو أذن فكيف تصغرهما ؟، وإذا سميت امرأة بفرس فكيف تصغرها ؟ إلى كثير جدا من أمثال هذا في كل باب تقريبا"[22].

كما نراه يسهب في الشروحات والتعليقات والتقريرات، مع عزو جملة ذلك إلى مظانه من كلام العرب، والقرآن الكريم ونقول أشياخه.. وكأني به ينظر بعين الطائر آفاقا رحبة يحرص فيها على ألا يفوته شيء منها، أي أن عقلية الحشو والجمع كان كثيرا ما تؤطر حركته العلمية.

6. وفي مقام الاستيثاق كان يستوثق لمصادره مثلا باللهجات ومن ذلك قوله "وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هذيل"[23].

ويكتفي في كثير من الأحيان بذكر اللهجة دون تعيين أصحابها قائلا "سمعنا بعض العرب يقولون.. وزعموا أن أهل مكة لا يبينون التاءين.. العرب الموثوق بهم يقولون.. سمع أعرابيا يقول.. "[24].

والظاهر أن منهجه في اللهجات البناء على الشائع الغالب من كلام العرب والقياس عليه، وهذا هو الأصل وإنزال ما عداه منزلة الشاذ المحفوظ الذي لا يقاس عليه، كما يحرر من شواهد الشعر قواعده "ففي الكتاب ألف بيت وخمسون من شعر العرب نسب منها نحو ألف بيت إلى قائليها، وفيه كثير من كلام العرب وأمثالهم"[25].

أما عدد الآيات القرآنية فهي في حدود الأربعمائة آية وخمس وأربعين آية قد تزيد أو تنقص قليلا، بينما لم يتجاوز الحديث الشريف سبعة أحاديث يدلل بها ليدعم قاعدة يقعدها، أو نقدا يراه لها جاعلا إياها في الدرجة الثانية أو الثالثة بحسب ما يتهيأ له من آيات قرآنية، وأبيات شعرية.

وفي سياق الأمثلة فيعتمد صاحب الكتاب على واحد وأربعين مثلا وهو عدد ضئيل إذ ما قارناه بتوسع العرب فيها باعتبارها خلاصة خبرات الإنسان العربي اليومية ومقارنة بحجم الكتاب الضخم كما أن سيبويه يحبك بعض الصيغ النحوية المصنوعة التي لا تشك في أنها ليست بأمثال، ويقدمها على التوهم أنها كذلك مما يجعل جرد المثل يترل إلى ما دون العدد المذكور سلفا.

7. لغة الكتاب تطرح تحديا للقارئ المختص فضلا عن القارئ العادي يقول بعض الدارسين المتقدمين : "نظرنا في كتاب سيبويه فوجدناه في الموضع الذي يستحقه، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح لأنه

كتاب ألف في زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ فاختصر على مذاهبهم"[26].

ونتصور أن التذرع بمعنى أنه تأليف نسج على منوال زمانه على خلفية أنه كان يحطب في حبل جيل القدامى من جيله تذرع غير مقنع وإلا كيف نفسر نعت القدامى لدارس الكتاب براكب البحر وما ذاك إلا للتعقيد الذي يلفه، ويحيط جوانبه، وإن لم يبينوا عن هذا المعنى مجاراة للهالة التي أحيط بها الكتاب فهم أبانوا عن حجم معاناة التعاطي معه مضمونا.

ومقام الإنصاف يقتضي أن يقال إن "كتاب سيبويه" يمثل في كثير من نواحيه لغة الفارس المستعرب في إيجازها، وازدحامها بالمعاني والأغراض ازدحاما قد يبلغ حدّ التخمة مع التواء حينا، وعجز قد يبلغ حدّ اللكنة أحيانا... فحين يقرر القاعدة النحوية المشهورة وهي "أن الخبر مرفوع بالمبتدأ" فيقول: فأما الذي بني عليه شيء هو هو فإن المبني عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء" فأي كلام هذا ؟ وما ترجمته؟ فقد تعب أرباب الشروح والحواشي في إبانته، وتوصيل مراده إلى الأذهان"[27].

ذلك أن "سيبويه وما يتصل به من معارف نحوية وقواعد لغوية، وآراء في الصوتيات وأفكار في اللهجات، وأقوال في الشعر، والأمثلة ومقارنات بين وجهات نظر أثرت عن شيوخه.. يصور صعوبات بعضها فوق بعض، صعوبات في فهم العبارة وتذليلها، صعوبات في تحليل التركيب اللغوي وبسطه، صعوبات في تركيب عناصر الجملة، صعوبات في ضم شتات الفكرة، صعوبات في الاستنتاج والوصول إلى الهدف.. فجعلت من قراءته وفهم إشاراته ورموزه ومدلولاته أمرا عسيرا "[28].

إن مثل هذا التعليل قد يكشف عن بعض أجزاء الصورة، أو الوجه الآخر من العملة ـ كما يقال ـ غير أن هذه النظرة لا يجب أن تكون

اجتزائية للكتاب إذ في مكنتنا تجاوزها لنستشرف الجانب المشرق من هذا العمل الضخم متى قر في أذهاننا أن ليس هناك عمل كامل بالمطلق ولا عمل ناقص بالمطلق.

فهذا النوع من النظر ينطلق من تفاصيل ذات غاية ومعنى محدد كان يخامر صاحب الكتاب، قصدا منه للتأسيس لمفاهيم مرتجلة لم يسبق إلى كثير منها وهذا بناء على ما يمتلك من نضج معرفي، وهو بالنهاية يحيل على خبرته مع مسائل النحو ويعيد إنتاجها أكثر من أي شيء آخر وقد يكون عذر صاحب الكتاب فيما تحفظ عليه فيه:

1. كون الرجل كان ينظر ـ كما أسلفنا ـ بعيني الطائر آفاقا رحبة حريصا على أن لا يغفل شيئا منها، فعمد إلى حشد هذا الكم من المعارف التي حشا بها مؤلفه بذهنية تجميعية، وهي ذهنية تميل إلى تقييد العلوم ـ دون احتفال بالنوعية ـ خشية ضياعها لقلة التدوين أو دروسها بموت أصحابها جريا على قاعدة العلم صيد والكتابة قيد فجاء "صنيع سيبويه للمعارف اللغوية في القرن الأول والثاني من الهجرة يشبه إلى درجة كبيرة صنيع فلاسفة العرب في العصر العباسي بالنسبة لبعض الآثار الإغريقية فلولا تسجيل سيبويه لتلك المعارف اللغوية في كتابه العظيم لانقطعت صلتنا بها وضاعت علينا إلى الأبد كما أنه لولا ترجمة فلاسفة العرب لفلسفة "أرسطو" ومعارف "جاليان و"أبيوقراط" إلى العربية لضاعت هذه الآثار إلى الأبد لأن أصولها فقدت ضمن ما عدت عليه أحداث الزمن"[29].

ثم إن "مناهج البحث العلمي في أي علم من العلوم تعتمد أول ما تعتمد على السنن الفطرية للعقل الإنساني في الإدراك.. وإن من يتصدون للكلام في المنهج يعتمدون أول ما يعتمدون على ملاحظة طرائق من

تقدموهم في المعالجة العملية لمسائل ذلك العلم ويتحصلون القواعد المنهجية أو الأصولية"[30].

2. إن من حسن تقديرنا للقضايا أن يقال إنّ العلوم يومها لم تكن تقر بالفصل بين المعارف المتقاربة على مستوى المنهج كما هو عليه الحال في عصرنا الحاضر من ميل البحث العلمي إلى تجزئة القضايا وتناولها مفردة بقصد استيفائها حقها من الدرس، وهذا ما يفسر بروز العلماء الموسوعيين، واختلاط المفاهيم والمعارف عند كثير منهم إلى حدّ الاشتباك والاشتباه في المفاهيم.

3. إننا نحسب أن عمل الكتاب انتحى منحى العمل الإجرائي التقني الذي يتغنى به صاحبه المباشرة في طرح القضايا رأسا، وإن اعترى أسلوبه الوهن والاختلال فذلك عائد لطبيعة المادة وكون النحو ليس " بالعصا السحرية التي إن أمسك بها الإنسان استسلمت له اللغة فدرب عليها لسانه، وانطلق بها في غير تردد، وإنما هو وسيلة إلى تكوين وعي لمتكلمها بمكوناتها وأبنيتها وتراكيبها وإلى عقلنة ما اكتسبه منها"[31].

هذا المعنى حاول سيبويه الوقوف عنده ذلك أن القاعدة لا تصنع اللغة، وإلا كان ذلك قلبا للمسألة، وقد عبر ابن خلدون لعهده بما يفيد ذلك عند حديثه عمن جعل ذلك بضاعته، وأنفق العمر لها قائلا "نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته.. أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي"[32].

4. ليس من الاعتراف لذوي الفضل بفضلهم أن يغمط سيبويه حقه في صناعة النحو لأن تصويره على أنه مجرد جامع لأثار الخليل مقالة تنقصها

الدقة وربما كان الحافز عليها النظرة العصبية على خلفية فارسيته وعربية الخليل، فالرجل غير عربي وليس مطلوبا منه "يكون عربيا، أو كالعربي في كونه عارفا بلسان العرب بالغا فيه مبالغ العرب.. وإنما المراد أن يصير فهمه عربيا في الجملة"[33]، وإن خذلته اللغة في غير ما موطن من الكتاب لاعتبارات منها أن الأقدار باكرته بريب المنون في مرحلة الشباب وفي الثلاثينات من عمره أي قبل سن العطاء الحقيقي.

يقول أحمد أمين في المعنى "فإذا علمنا أنه فارسي الأصل وأنه عربي بصري بالمربى، وأنه مات وله بضع وثلاثون سنة أدركنا مقدار نبوغه"[34].

ومهما قيل في الكتاب بالسلب أو الإيجاب "ما زال على كثرة ما ألف بعده عظيم القدر فلم تتغير بهجته، ولم تخلق جدته، فهو كالدوحة الباسقة وغيره أغصان لها وفروع، وكالنهر المتدفق يغذي فروعه وجداوله، فجميع النحويين الذين جاءوا بعد سيبويه تأثروا كثيرا بكتابه، واهتدوا بهديه، وساروا في طريقه"[35].

ويكاد مجموع من جاءوا بعد سيبويه يكونون عيالا، فهو أشبه بالعلم الذي في رأسه نار ـ كما تقول الخنساء ـ يهتم الهداة به، ومجرد ذكره يحيطه هالة من الإكبار والإجلال لفضله وبيض أياديه على أهل العربية وعلمائها، ويمكننا هنا رصد بعض المواصفات التي مثلت قاسما مشتركا منذ أن وهب سيبويه للنحو مدونته وإلى غاية القرن الرابع الهجري(*) حيث " لم يتوقف نشاط النحاة المتعاقبين، ولا خلا جيل واحد من إمام في النحو بل أئمة يدرسونه.. ويكتبون فيه المطولات ويتنافسون في جمع أكثر ما يمكن من عناصره"[36].

1. " كادت مصادر النحاة تقتصر على رواية الشيوخ.
2. سيطرت شواهد سيبويه عليهم سيطرة واضحة.

3. جدت بعض الشواهد ولكنها لم تؤدي إلى استنباط أصول جديدة.

4. ظلت أسماء الشعراء الموثوق بهم تدور في كتب هذه المرحلة ولا سيما امرئ القيس والأعشى والنابغة من شعراء الجاهلية، والفرزدق، وجرير وذي الرمة، والعجاج، ورؤبة من شعراء العصر الأموي"[37].

كما لم يخل من الإشارة إليه في النحو مصدر ولا مرجع، ووثق النحاة شواهده سواء من نسبهم أو من أغفل نسبتهم لغلبة روح التقليد له، وفرط الثقة فيما يأتي ويذر كعربون إكبار وإجلال لصنيع الرجل، وسيبقى لسيبويه حيازة فضل السبق ودونها خرق القتاد كما تقول العرب .

الهوامـــش

(1) ــ شرح أبيات سيبويه. أبي محمد السيرافي. تح. د. محمد الريح هاشم. دار الجيل. بيروت. لبنان . طبع سنة 1996م. ج1/07 .

(2) ــ أثر النحاة في البحث البلاغي. د . عبد القادر حسين. نهضة مصر. الفجالة. القاهرة. ص67.

(3) ــ كتاب الفهرست. ابن النديم. تحقيق رضا تجدّد. ج2/57 .

(4) ـ أثر النحاة في البحث البلاغي. د. عبد القادر حسين. ص67.

(5) ـ الأمثال في كتاب سيبويه عرض ومناقشة وتقويم. د. شوقي المعري. مجلة التراث العربي. اتحاد الكتاب العرب. العدد [86/ 87] . سنة 2002م . دمشق . سوريا .

(6) ـ اللغة بين المعيارية والوصفية. تمام حسن. دار الثقافة بالدار البيضاء. المغرب. طبع. 1992م. ص97 .

(7) ــ نظرات في التراث اللغوي العربي. د. عبد القادر المهيري. دار الغرب الإسلامي ط (1). 1993. ص228.

(*) ـ ينظر تفصيل ذلك في تاج العروس. الزبيدي. دار صادر. بيروت. طبع. 1986م. ج1/11 وينظر المزهر للسيوطي. دار الفكر. دار الجيل. بيروت. لبنان. ج2/397 وما بعدها .

(8) ــ تراث الإنسانية. وزارة الثقافة والإرشاد. الشركة العربية للطباعة والنشر. ج1/892.

(9) ـ ينظر مثلا الكتاب. تحقيق. عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة. الطبعة الثالثة. 1988م. ج2 / ص396. وص 374. وص 48 وص 286 . وص 372 .

(10) ــ الكتاب. سيبويه . ج2/402.

(11) ـ المصدر السابق. ج1/06.

(12) ـ معجم الأدباء. ياقوت الحموي. دار الفكر. طبع. (3). 1980م. ج11/75.

(9) ـ تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان. تحقيق. عبد الحليم النجار. دار المعارف. مصر. ج2/131. وينظر المزهر. للسيوطي. ج2/399 .

(10) ـ الكتاب. سيبويه . ج2/402.

(11) ـ المصدر السابق. ج1/06.

(12) ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي. تحقيق. محمد إبراهيم. دار المعارف . مصر. ص66 .

(13) ـ أثر النحاة في البحث البلاغي. د. عبد القادر حسيـــن. ص67.

(14) ـ في اللغة والأدب. إبراهيم بيومي مدكور. دار المعارف. مصر. طبع. 1971م. ص45.

(15) ـ تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان. ج2/131 .

(*) ـ يعد عيسى بن عمر أستاذ الخليل وسيبويه .. ينسب إليه كتابان في النحو: أحدهما الجامع والآخر الإكمال.. ويروى عن المبرد أنه رأى بعض ورقات منهما، و لم يعرف ابن الندم إلا اسميهما، وقيل أن سيبويه صنّف كتابه على أساس كتاب الجامع. [ينظر تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان. ج2/131. المزهر للسيوطي. ج2/399].

(16) ـ عبقري من البصرة. مهدي المخزومي. الرائد العربي. بيروت. طبع. 1986م. ص75.

(17) ـ نظرات في التراث اللغوي العربي. د. عبد القادر المهيري. ص173 وما بعدها.

(18) ــ القياس في النحو العربي. د. سعيد جاسم الزبيدي. دار الشروق. عمان الأردن. طبع (1). 1997م. ص107 بتصرف.

(*)ـ الأخفش الكبير عبد الحميد بن عبد المجيد أبو الخطاب.. كان دينا ورعا وثقة من أئمة اللغة والنحو، وكان قد لقي الأعراب وأخذ عنهم وعن أبي عمرو ابن العلاء وطبقته وأخذ عنه سيبويه اللغة وشيئا من النحو [ينظر طبقات النحويين واللغويين. للزبيدي. ص 35] .

(*)ـ ينظر مقدمة الكتاب. تح. عبد السلام هارون ج09/1 عن كتاب سيبويه إمام النحاة . للأستاذ علي النجدي.

(19) ـ الكتاب. سيبويه . ج14/1.

(*) – الرؤاسي محمد بن الحسن بن أبي سارة .. سمي بالرؤاسي لأنه كان عظيم الرأس أخذ عن عيسى بن عمر، وهو أول من وضع كتابا في النحو، وكان أستاذا للكسائي والفراء [ينظر الفهرست لابن النديم. تحقيق رضا تجدد. الطبعة الثانية. مصر. ص 69].

(20) ـ الكتاب. سيبويه . ج399/2.

(21) ـ بنية العقل العربي. محمد عابد الجابري. مركز دراسات الوحدة العربية. طبع (3). ص 28 بتصرف .

(22) ـ ضحى الإسلام. أحمد أمين. دار الكتاب العربي. بيروت . طبع 1974 م . ج292/2 .

(23) ـ الكتاب. سيبويه . ج440/4.

(24) ـ ينظر المصدر السابق مثلا ج63/2. وج440/4. وج337/2 . ج411/2 وغيرها .

(25) ـ ضحى الإسلام. أحمد أمين. ج291/2 .

(26) ـ الكتاب. سيبويه . ج31/1.

(27) ـ اللغة والنحو. عباس حسن . دار المعارف. بمصر. الطبعة الثانية. 1971م. ص 225 وما بعدها .

(28) ـ شرح أبيات سيبويه. أبو محمد السيرافي. تح. د. محمد الريح هاشم . ج1/07 .

(29) ـ المصدر السابق . ج1/07.

(30) ـ القياس في النحو . منى إلياس . دار الفكر. دمشق. طبع (1). 1985م . ص116 .

(31) ـ نظرات في التراث اللغوي العربي. د. عبد القادر المهيري. ص 140.

(32) ـ المرجع السابق. ص 135 .

(33) ـ الاعتصام. الشاطبي. تحقيق. أحمد عبد الشافي. دار شريفة. الجزائر. ج2/473.

(34) ـ ضحى الإسلام. أحمد أمين. ج2/291 .

(35) ـ المقتضب. المبرد. تحقيق. محمد عبد الخالق عضيمة. دار الكتاب المصري، واللبناني. بيروت. ج.4/598

(*) ـ أما النحاة الذين تلوا هذه المرحلة (بعد القرن الرابع للهجرة) كالزمخشري، وابن الشجري، وأبي البركات الأنباري، والرضي، وابن يعيش، وابن مالك فليس هناك ما يميزهم من سابقيهم سوى أنهم جنحوا للاستشهاد بشعراء المولدين. [ينظر القياس في النحو العربي. د. سعيد جاسم الزبيدي. ص111].

(36) ـ القياس في النحو العربي. د. سعيد جاسم الزبيدي. ص111.

(37) ـ نظرات في التراث اللغوي العربي. د. عبد القادر المهيري. ص 102.